+ قداس الشعانين

صباح الاحد ١٣ نيسان ٢٠٠٠ ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عوده قداس أحد الشعانين في كنيسة مار الياس في المصيطبة بحضور حشد كبير من المؤمنين. وبعد قراءة الانجيل المقدس ألقى سيادته العظة التالية:

"باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، آمين.

أيها الأحبة، نعيّد اليوم لإله المتواضعين والودعاء. هذا الذي عرفناه إلهًا يقيم الموتى بعد أن أنتنت أجسادهم يأتي اليوم إلى أورشليم للعيد لا بما رأيناه فيه من مجد وقوة ومُلْك وألوهة بل بصورة المتواضع. دخل أورشليم على جحش ابن أتان ليُظهِرَ للناس تواضعه، وليكشف لهم قوة التواضع والوداعة، وليعلّمهم أنه سيموت من أجل الناس جميعًا، من أجل الإنسان، وهذا الموت سيعتق المأسورين بالضعف والخوف والموت. هذا الموت المحرِّر سيكون قدوة لكلّ من أراد أن يحب، لكل من عشِق المحبة وشاءها له سبيلاً، لأن التواضع والوداعة وعاءُ مخافة الله. المتواضع إنسان يخاف الله، أي يعبده، يحبه، يعرف أن الله هو كل شيء وأنه هو لا شيء، لكن الله يسكب فيه كلَّ غنى، يسكب فيه الحياة كلها. المتواضع إنسان يسير على درب الرب، يتمثّل به إذ قال: "تعلّموا منّي لأني وديع ومتواضع القلب" (متى ١١: ٢٩). تعلّموا مني. فإذا شئتم أن تكونوا على صورة المسيح، أنتم الذين لبستم المسيح، وإذا أردتم أن تحافظوا على العهد الذي قمتم به وعلى الوعد الذي خُتمتم به في المعموديّة، فيسوع هو قدوتكم، هو مثالكم، والمسيحي ينظر إلى المسيح في كل عمل يقوم به، ويسمع المسيح في كل قول يقوله، ويتأمل في المسيح في كل فكر يشاء أن يطلقه للناس. التواضع إذًا هو الطريق الوحيد الذي يرفعنا إلى الله لأن الرب يسوع قال "كلّ من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع" (متى ٢٣: ١٢). فالذين يرفعون نفوسهم اليوم هم في أسفل، عند الرب، أما الذين يرون علو الله وسموّه فهم، بفضل رؤيتهم هذه ، يتعالون ويرتفعون.

اليوم نعيّد ليسوع كإله التواضع، كإله الوداعة، كرب المنسحقين والمتألّمين والفقراء والمحزونين وكل إنسان يجد نفسه منزويًا ووحيدًا. دخل يسوع اليوم إلى أورشليم متواضعًا ليقول لكل من وجد نفسه في هذه الحال أنت لست وحيدًا، أنا معك إلى انقضاء الدهر. الفرّيسيون الذين هم صورة للمتكبّرين والمتشامخين انزعجوا من الجموع التي كانت تسبّح الله بصوت عظيم هاتفة "مبارك الآتي باسم الرب" وقالوا ليسوع "يا معلّم انتهر تلاميذك" (لوقا

١٩: ٣٩). أرادوا أن يوبخ الناس على اعترافهم بالله. أجابهم يسوع: "أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ" (لوقا ١٩: ٤٠).

الحق لا يمكن أن نخفيه. الحق لا يُستر. الحق يبقى في وضح النهار. هؤلاء المنزعجون من الحق أرادوا أن يصمت التلاميذ، أن يسكت الذين يحبّون الله ويحبّون الحق ويرونه. كم أرى في هذا العيد الذي نحتفل به صورة لحال بلدي اليوم. بعض أبنائنا يطلقهم العدو وبعض شبابنا يُزَجّون في سجون الوطن. نحن نفرح لأحباء أُطلقوا من سجون العدو ومن أسره، وكم نصلّي من أجل أن يُطلق الحاج مصطفى الديراني، ونتمنى أن يسعى كلّ إنسان قادر إلى تحريره مع جميع الأسرى اللبنانيين، حيثما كانوا. الأسير أسير حتى لو كان مأسوراً في بيته. نصلّي أن يُطلق هذا الأخ الحبيب وجميع الإخوة والأحبة.

وقد آلمنا أن نسمع أن بعضًا من شبابنا قد سُجنوا والبعض الآخر أُسكِتوا. دعائي وألمي الصارخ يقول: لا تسجنوا الضمير في بلدي. لا تُسكتوا الحياة في وطني. إن صَمَتَ الشباب فمن يتكلّم؟ لماذا يموت الشهداء؟ الجميع يتكلّمون عن المقاومة الباسلة. إذا كان الشهداء لا يموتون من أجل الحرية والديمقراطية فحرام الدماء المهدورة، وحرام الموتى الشهداء. إذا كانوا لا يموتون من أجل أن يحيا هذا الوطن فصلاتي أن يرحمهم الله رحمة عظيمة. هؤلاء الأحرار يموتون أحراراً حتى من الموت.

ما أسهل أن ننعت الشباب بالنعوت وهذه ليست إلاّ علامة ضعف عميق. هل أصبح اللبنانيون إسرائيليين؟ لماذا إذًا كل النعوت التي نلصقها بهم؟ أليراهم المواطنون بمنظار آخر؟ ما أسهل وصم وجوه الناس بشتى الوصمات! إنه الضعف بعينه. إنه الفقر إلى الشجاعة بعينه.

يا أحبة، لمن يموت الأحرار؟ ألبلد تُدفن فيه الحرية؟ هل يستأهل بلد تُدفن فيه الحرية أن نموت من أجله؟ هل يستحق بلد نفتش فيه عن الديمقراطية أن نستشهد من أجله؟ تجارة الأبواق والأقنعة هي التجارة الرائجة اليوم في بلدي. وإذا كشفتم عن الوجوه الحقيقية ترون وجوهًا مختلفة. ما أكثر المبوّقين! من يغنّي لبنان إن خَبَتْ أصوات الشباب والأحداث؟ من يبث نبض الحياة في لبنان إذا ما صمت الشباب؟ العدو يحرّر شبابنا ولبنان يدفن شبابه. ومن أعذارهم أنّ رجال الأمن جُرحوا من شباب عُزّل. أي مزاح ثقيل!

لا تتآمروا على الشباب، فإن فعلتم فأنتم تتآمرون على لبنان. يا أحبة ليقل كل زعيم، إن كان من زعماء في هذا البلد، ألا يتذكرون أنهم إن كانوا يتحلّون بصفات الزعامة والقيادة فقد اكتسبوها منذ أيام الجامعة عندما كانوا يتظاهرون ويعبّرون عن آرائهم وتطلّعاتهم؟ إذا أسكتنا الجامعيين فمن سيتكلّم؟ الجهلاء أم الزبانية؟ اسمعوا ما يقوله الرب: "قد تمّت فيهم نبوءة أشعياء القائلة تسمعون سمعًا ولا تفهمون، ومبصرين تبصرون ولا تنظرون لأن قلب هذا

الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سماعها وغمضوا عيونهم لئلاّ يبصـــروا بعيونـــهم ويســـمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم" (متى ١٣: ١٣-١٥). تخيّلوا بشرًا يغمضون أعينهم كي لا يروا. منتهى الجبن! لماذا يزعجهم الشباب؟ لأنهم دينونة لهم. تمامًا كما الإنسان الصالح بين الأشرار يزعجهم.

أطلقوا الشباب ليبقى لبنان. نسمع بعض التهديدات الموجّهة إلى الشباب. مع احترامنـــا لكل الأصوات لبنان لا يبقى إلاّ بشبابه. "أكتب إليكم أيها الشباب لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتـــة فيكم" يقول يوحنا في رسالته الأولى (٢: ١٤). في كل صلاة نقيمها نحن نصلّي من أجل حكام هذا البلد ومؤازرتهم في كل عمل صالح. نحن لا نصلّي لهم من أجل أن يقومـــوا بأعمـــال لا يرضى عنها الضمير. ولن تقنعنا التفسيرات.

سمعت أخًا لي كبيرًا وجليلاً تكلّم منذ أيام عن الانضباط. نحن بالتـــأكيد لســـنا مـــع الفوضى ولكن هل يتم إصلاحٌ والناس نيامٌ أو جالسون على الكراسي؟ مع احترامي للانضباط أنا أتمنى أن يصحو كل الشعب. إيماننا ورؤيتنا ليسوع أنّه أتى ليخلّصنا ولم يأتِ ليكمّ أفواهنـــا ويذيقنا الجوع والخوف، وقد ثار على كلّ ظلم وفساد. نحن نرحب بكل إنسان يعمل لخـــلاص وطننا لكننا لا نقبل بمن يجوّع البلد. وشبابنا يهاجرون ونسمع الخطابات عن الهجرة. أخـــاف من نبوءة آخرى. عندما اقترب الرب إلى المدينة (أورشليم) بكى عليها وقال "لو علمتِ أنـــتِ أيضًا حتى في يومك هذا ما هو لسلامك. ولكن الآن قد أُخفي عن عينيك. فإنّه ســـتأتي أيـــام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجرا على حجر، لأنك لم تعرفي زمان افتقاد الله لك" (لوقا ١٩: ٤٢-٤٤).

نحن لا نعرف متى يكلمنا الله لأننا ضائعون. الفريسيون والكتبة قالوا ليسوع انتـــهر تلاميذك وليصمتوا. قال لهم إذا صمتوا الحجارة ستتكلم. إذا صمت الشـــباب حجـــارة لبنـــان ستتكلم، والتاريخ سيدين كل إنسان كم أفواههم.

شبابنا هم فخرنا ومستقبلنا. هم الأصدق فينا، هم الصـــادقون، هـــم العـــزل. معظـــم السامعين لن يكونوا مرتاحين وهذا يفرحني لأن الرب يزعج. عندما كان غبطـــة البطريـــرك إغناطيوس الرابع أسقفا مسؤولا في البلمند لم يكن ينفك يقول لنا ازعجوا بالحق وتحركوا لأن الشاب الذي لا يزعج لا روح شباب فيه.

لبنان غاف بمن يرتاحون في كراسيهم ونحن نســـمع بلســـان أحـــد المســـؤولين أن الانتخابات معلبة، وكلنا نعرف ما على المزمع أن يترشح للنيابة أن يفعل وكلنا صـــامتون إلا الشباب. شبابنا لهم الغد، شبابنا لهم لبنان. إذا قلتم لهم اصمتوا كل ذرة مـــن تـــراب لبنـــان ستصرخ: اصمتوا أنتم واسمعوا ما يقولون ولا تنعتوهم بالعمالة. شبابنا لبنانيون حتى العظـــام والمساومة تغطي أمورا كثيرة التاريخ سيفصح عنها حتما.

يا شبابنا، نحن معكم طالما أنتم في الشجاعة الحقّة والمواطنية الصادقة تدافعون عـــن لبنان وعن إنسان لبنان، ليبقى لبنان، كي لا يكون لقمة سائغة لمن يشاؤون جعله من الذبـــائح المرمية في معابد الوثن في العالم.

لبنان ينظر إليكم فأصغوا إليه ولا تخافوا. الله معكم ولو كان العالم كلـــه ضدكـــم. الله يحرسكم وينجّيكم. آمين"